روح الحضارة الإسلامية

للشيخ محمد الفاضل بن عاشور

ضبطها وقدم لها عمر عبيد حسنه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين

أبحاث علمية (٦)

الطبعة الأولى

١٤١٢هـ / ١٩٩٢م

© جميع الحقوق محفوظة

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

هيرندن، فرجينيا، الولايات المتحدة الأميركية

© 1412 AH/1992 AC by
The International Institute of Islamic Thought
555 Grove St. Herndon, Virginia 22070-4705 U.S.A.

Library of Congress Cataloging-in-Publication Data

Ibn 'Āshūr, Muḥammad. (1327-1390 AH/1909-1970 AC)
Rūḥ al ḥaḍārah al Islāmīyah /li Muḥammad al Fāḍil ibn 'Āshūr; *ḍabaṭaha wa qaddama lahā,* 'Umar 'Ubayd Ḥasanah.
p. cm.—(*abḥāth 'ilmīyah* ; 6)
ISBN 1-56564-025-X
1. Islam—20th century. I. Ḥasanah, 'Umar 'Ubayd, 1935—
II. Title. III. Series: *Abḥath 'ilmīyah* ; 6.
BP163.I24 1991 Orien Arab 91-45285
CIP

الكتب والدراسات التي يصدرها المعهد تعبر
عن آراء واجتهادات مؤلفيها

Printed in the United States of America
by International Graphics Printing Services
4411 41st Street
Brentwood, Maryland 20722 U.S.A.
Tel. (301) 779-7774 Fax (301) 779-0570

المعهد العالمي للفكر الإسلامي
هيرندن ـ فيرجينيا ـ الولايات المتحدة الأمريكية

تصديـــر

الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى وبعد:

فحين أعد المعهد مشروعه لدراسات حركات الإصلاح والتغيير المختلفة عبر تاريخنا الإسلامي كله للوصول إلى رصد أسباب القوة، وعوامل الضعف في تلك الحركات لتوظيف الأولى، وتلافي الأخرى، استدعى بعض العلماء للتشاور معهم في ذلك، وطلب الرأي والمشورة من كثير من مستشاريه، وكان من بين هؤلاء الأستاذ الفاضل الدكتور عبد المجيد النجار، فسر في المشروع سروراً كبيراً وسارع إلى تقديم جملة من المقترحات الهامة. وقد تشرّف المعهد بدعوته لزيارة مقره في هرندن فلبى الدعوة مشكوراً وقضى بين إخوانه في مقر المعهد شهراً كاملاً من الصيف الفائت، وقد اقترح على المعهد تقديم رسالة الشيخ الفاضل بن عاشور ـــ نرجو الله تعالى له الرحمة والمثوبة ـــ لتكون بمثابة مقدمة لهذا المشروع وورقة عمل له، وبعد الاطلاع عليها صدق الخبر الخبر ـــ كما يقولون ـــ فوجدناها رسالة على لطافة حجمها تضم الكثير وتصلح أن تكون مقدمة جيدة لهذا المشروع وورقة عمل له.

والمعهد بتقديم هذه الرسالة وتدشين هذا الموضوع ضمن سلسلة أبحاث علميّة يعلن عن بدء العمل بمحوره الثالث وهو محور البعث والتجديد والإحياء الحضاري القائم على محوريه السابقين الأساسيين: الإصلاح المنهجي والفكري، والبناء الثقافي والمعرفي. وهو ـــ في الوقت نفسه ـــ يعلن انتهاءه

إلى تلك السلسلة المباركة الطويلة من اتجاهات الإصلاح والتغيير والعمل المنهجي، لا ليقلد أيا منها، بل ليتصل بها اتصال التوارث والتواصل، فإن حبل هذه الأمة متصل، وتوارث الرسالة بعض خواصها: ﴿**والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقاً لما بين يديه إن الله بعباده لخبير بصير. ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير**﴾ (فاطر: ٣١ــ٣٢).

وقد عهد المعهد إلى الأستاذ الكريم عمر عبيد حسنة بدراسة الرسالة والتقديم لها ففعل مشكوراً فكانت المقدمة بمثابة تحديث للرسالة وإضافة إليها.

إن الرسالة في شكلها هذا تمثل نداء المعهد إلى العلماء والمفكرين لتقديم ما لديهم من بحوث ودراسات حول حركات الإصلاح والتغيير في تاريخنا وحاضرنا الإسلامي ودراسة عوامل الإمكان الحضاري وأسباب النهوض وعوامل التراجع والتخاذل لتكون هذه الدراسات تنويهاً بفضل الغابرين ودليلاً للمعاصرين ونذيراً للآتين من بعدهم.

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

د. طه جابر العلواني

رئيس المعهد العالمي للفكر الإسلامي

تقــديــم

بقلم: عــمر عبيـد حسـنه

الإنسان هذا المخلوق المكلَّف ، المتميز بالعقل ، الذي يمنحه القدرة على الاختيار ، هو محور الحضارة ، ووسيلتها ، وهدفها ، ومعيارها ، في الوقت نفسه . . وإنما تقاس الحضارات ، بمدىٰ قدرتها على تحقيق إنسانية الإنسان ، وتنيمة مواهبه ، وإطلاق ملكاته ، ورعاية قابلياته ، وتحقيق وعيه بذاته ، وانسجامه مع الكون والحياة ، والارتقاء به ، ليحسن القيام بدوره في البناء الحضاري ، الذي يكرم الإنسان ويُكَرَّم به .

ولما كان الإنسان وسيلة الفعل الحضاري وأداته ، وكان محله وهدفه أيضاً ، فإن الإنجاز الحضاري سوف يكون عرضة لمجازفات ، وتجارب ، ومخاطـر ، وعوارض ، وأهواء ، تعتبر من إصابـات الإنسان نفسـه ، بسبب علمه المحدود ، وعمره المحدود ، ومعارفه النسبية ، وميوله المتنوعة ، وغرائزه المتدافعة ، إضافة إلى عجزه عن إدراك الحقائق الغيبية ، عن النشأة والمصير ، التي لاتزال تشكل له قلقاً ، يُـذْهب أمنه النفسي ، وينعكس عـلى كسبه

وإبداعه ، بنوع من الاضطراب ، وعلى أهدافه بالاهتزاز ، وعدم الثبات ، مهما حاول الهروب ، والانغماس في عالمه المادي ، لذلك تشتد الحاجة به ، إلى الموجِّه لطاقاته ، والمرشد لمسالكه ، من مصدر خارج عن نفسه ، يمتلك العلم المطلق ، الذي لا يحده زمان ، ولا يقيده مكان ، ولا تخفى عنه خافية . . تشتد حاجته إلى الإيمان ، الذي يوجهه ، ويحقق له الأمن النفسي والاجتماعي . . يطلق طاقاته في المسار السليم ، وينطلق بملكاته ومواهبه ، ويزكّي غرائزه ، ولا يتجاهل حاجة من دوافعه الأصلية . الإيمان الذي يعترف بكينونته ، ويحقق إنسانيته ، ويحرره من شتى ألوان العبودية ، سواءً كانت متأتية من إنجازه ، أم كانت منحدرة من جهة خارجة عنه .

ولعل من أهم الخصائص التي امتازت بها الحضارة الإسلامية ، هي هذا الهدي المقصدي للإنسان ، الذي أحدث التفاعل ، بين عطاء الوحي ، وتطلعات العقل ، وأشواق النفس ، بحيث ارتقى بموقع ، ووظيفة الإنسان من مجرد وسيلة ، وأداة للإنجاز الحضاري ، إلى مستوى جعل معه المنجزات الحضارية ، التي يبتدعها ، وسائل مسخرة لخدمته وتحقيق إنسانيته ، والارتقاء بموقعه ، وجعله مسخِّراً للكون ، بدل أن يكون مسخَّرًا له ، فهو الإنسان المكلف ، وفي الوقت نفسه الإنسان المكرم ، وبذلك ، كان بين تعاليم الوحي ، وتطلعات العقل ، تواعد والتقاء ، فأثمر ذلك كله إنسانية الحضارة

الإسلامية ، الذي رسم مساراتها ، وحدد أهدافها الوحي ، وحقق إنجازاتها في المستويات المتعددة ، وابتكر وسائلها الإنسان المكلّف : قال تعالى : ﴿ ألا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وهو اللطيفُ الخبيرُ ؟ ﴾ (الملك : ١٤) . فالهدي وبيانه من الوحي ، والاستدلال والبرهان ، من كشف العقل ، قال تعالى : ﴿ سَنُرِيهم آيَاتِنا في الآفاقِ وفي أَنفُسِهِم حتى يَتَبَيَّنَ لهم أَنَّهُ الحقُّ ﴾ (فصلت : ٥٣) . فالوحي يحدد الأهداف ، والعقل يكشف السنن ، ويبدع الوسائل ، التي تحقق الأهداف ؛ ولعل مرد الإصابات جميعها ، التي لحقت بحضارة المسلمين ، بعد عصر النبوة ، والتي لحقت بالحضارة العالمية في عصورها التاريخية بشكل عام ، هو في اختلال المعادلة ، بين معارف الوحي ، ومدارك العقل ، ذلك أن الاقتصار على علوم ومعارف الوحي ، يبصر بالأهداف ، لكن تلك الأهداف تبقىٰ غائبة ، وعزيزة المنال ، بدون مدارك العقل ، وإبداعاته للوسائل والأوعية ، التي نتوصل بها إلى تحقيق الأهداف ، كما أن الاقتصار على مدارك العقل ، وإبداعاته ، بعيداً عن الهدي المقصدي هو امتلاك للوسائل ، التي تصبح عاجزة عن إبصار الأهداف . وبذلك تضل الطريق ، فتنقلب الوسائل بحد ذاتها إلى أهداف ، وعندها يصبح الإنسان في خدمة الحضارة ، فيبرز ويتضخم دور الإنسان المكلّف ، ويغيب ويتضاءل دور الإنسان المكرم .

ولعل قراءة صحيحة للواقع الإسلامي ، والحضارة العالمية اليوم ، تدل دلالة واضحة ، على أن عالم المسلمين ، انتهىٰ اليوم لأن يكون عالم أهداف ، وقيم ، وشعارات ، تعوزه الوسائل ، التي توفرها العلوم الإنسانية والمادية معًا (علوم ومعارف العقل) بينما تضل الحضارة العالمية ، وتفتقد غايات الحياة وحكمتها ، لتصبح حضارة وسائل ، جعلت من الإنسان نفسه وسيلة محرومة من الأهداف ، الأمر الذي لايتحصل إلا من معارف الوحي ، وهداية الإيمان .

وتميز الحضارة الإسلامية في عصر النبوة والخلافة الراشدة ـ كما أسلفنا ـ أنها استطاعت حل المعادلة الصعبة ، والموازنة بين معارف الوحي ، ومدارك العقل ، في تشكيل إنسانها المكلّف ، للقيام بأعباء الاستخلاف الإنساني ، المكرّم بالإنجاز الحضاري ، ذلك أنها اعتبرت أن حمل الأمانة تشريف وتكليف ، ولأن من خصائص الرسالة الإسلامية ، التي كان الإيمان بها والانطلاق منها ، وراء صناعة الحضارة ، بمختلف أوجه نشاطاتها : الخاتمية والخلود ، بعد أن وصل العقل البشري إلى طور الرشد والاكتمال .

فالخاتمية تعني ، فيما تعني توقف الوحي ، ومن لوازم ذلك سلامة منهج النقل ، ليجيء التكليف صحيحاً ، إذ لايمكن عقلاً ، ولا واقعاً ، أن يتم التكليف بقيم محرفة ، وتعاليم منحولة .

ومن هنا نقول : إن التميز الحضاري ، والإمكان الحضاري في الوقت نفسه ، إنما يتحققان بحفظ الله لاستمرار قيم الوحي سليمة ، والتي كلما تفاعل معها الإنسان بشكل صحيح ، أثمرت الحضارة ، وكلما أصيب منهج العقل في التعامل معها ، كان التخلف ، والغياب الحضاري ، وهذا بطبيعة الحال لاينفي استمرار الإمكان الحضاري في كل حين وكل جيل .

كما يعني الخلود : مسؤولية العقل ـ بعد توقف الوحي بالخاتمية ـ عن الامتداد الحضاري بهذه القيم ، وإبداع الوسائل ، التي توفرها العلوم الإنسانية والمادية ، لبسط الإسلام على الواقع ، وتقويم سلوك الناس ، وإنجازهم الحضاري به ، لتأتي الحضارة من نضح القيم الإسلامية ، وتتوجه الوسائل إلى تحقيق الأهداف ، أو الهدي المقصدي للوحي ، للوصول إلى الإنسان المكرّم . وإلا كيف يمكن أن ندرك مدلول الخاتمية التي تعني التوقف ، والخلود الذي يعني الامتداد ، والتجرد عن حدود الزمان والمكان ، وتعديه الرؤية ، إذا لم نستوعب دور العقل ، ومسؤوليته في الوقت نفسه ؟

ولعل من أبرز ماتميزت به الحضارة الإسلامية أيضاً : أنها اعتمدت العقل سنداً للحقيقة الدينية ، ووسيلة لإداركها وإثباتها ، واعتمدت قناعة الإنسان سبيلها للإيمان ، وطريقها لحصول اليقين . . فالدين التزام ، وليس إلزماً . . والتدين اختيار ، وتحقيق لإنسانية الإنسان ، واستجابة لنزوع داخلي ، وميل

فطري ، وليس استسلاماً ، وتلقياً بدون قابلية ومناقشة ، وتعطيلاً لملكات الإنسان ، ومدارك عقله . . فرسالة النبوة هي إيصال البذرة الطيبة للنفس ، التي تتوافق مع قابليتها ، فتنبت الشجرة الطيبة ، الممتدة في أنماط السلوك ، وشعب الحياة المثمرة للحق والخير ، في سائر نشاطات الإنسان . . والتدين تهذيب للنفس وارتقاء بها ، وليس تعذيباً ، وعنتاً وإرهاقاً لها . . وغاية التكليف بذل الاستطاعة وبلوغ الوسع .

ومن سمات الحضارة الإسلامية المتفردة : أنها إنسانية الخطاب ، ميدانها العقل البشري ، وعطاؤها الفعل الإنساني . . دافعها تحصيل الحكمة ، أنى كان وعاؤها ، لذلك جاء نسيجها وإنجازها إنسانيًّا من الناحية التاريخية ، وبُعْدُها عالمياً من الناحية الجغرافية ، ومحلها الإنسان من الناحية الفكرية ، حيث تتوحد في نظرتها مصدرية الخلق ، وظروف المصير . فهي أول من دعا إلى المواطن العالمي في تشكيل الأمة ، ودولة الفكرة ، بعيداً عن كل الحدود ، والسدود ، والفوارق ، حيث جعلت ميزان الكرامة ، ومعيار التفاضل والارتقاء فيها كسب الإنسان ، وفعله المختار ، المتسق مع الطبيعة ، وفطرة الخلق ، وبذلك أسقطت المعايير القسرية في التفاضل ، التي لا يد للإنسان فيها ، من فوارق اللون ، والجنس ، والقوم ، والجغرافيا ، فبرئت بهذا من نوازع العصبية ودائها ، واعتبرت الأقوام ، والأجناس ، أموراً واقعية

قسرية ، لا يد للإنسان فيها ، بل هي من آيات الخلق ، ومعالم التكامل الاجتماعي ، التي تقتضيها وظائف التعاون والتعارف ، والانفتاح على العطاء العالمي ، فهي فوارق تنوّع وتعدد ، وليست فوارق تضاد ، وصراع ، وبذلك تميزت عن سائر الحضارات ، البائد منها والسائد ، التي لاتزال تؤمن بالتطور ، الذي يعني البقاء للأصلح ، والأصلح في نظرها هو الأقوىٰ .

والحقيقة التي لابد من الاعتراف بها ، والإشارة إليها ، في هذا التقديم : أن الحضارة الإسلامية ، بما تحقق لها من سلامة الخطاب ، الذي يعتبر من لوازم ختم النبوة ، والذي أورثها خاصية الإمكان الحضاري ، أصبحت قادرة في كل حين على استئناف دورها المنشود ، في تحقيق الشهود الحضاري . . وشواهد التاريخ ، تحمل الدلالة الكافية على قدرتها في فترات متعددة على النهوض ، والتجاوز ، والإقلاع من جديد . . كما تحمل الدلالة أيضاً ، على أن فترات الركود ، والجمود ، والاستنقاع الحضاري ، كانت بسبب اختلال المعادلة ، بين الوحي ، والعقل ، وعجز وسائل التربية ، والتشكيل الثقافي عن إحداث التفاعل ، بين الإنسان والإسلام ، بين الوحي ، والعقل ، وعجز العقل المسلم ـ بسبب تشكيله التربوي ـ عن رد الأمور المستجدة إلى قيم الكتاب والسنة ، وامتلاك القدرة على استنباط القانون ، واكتشاف الوسيلة ، التي تسهم بالحل ، وتحقق الهدي المقصدي للكتاب والسنّة ، حسب ظروف الزمان

والمكان ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ (النساء : ٨٣) والاستنباط هو مسؤولية العقل ، القادر على استصحاب قيم الكتاب والسنّة ، والاهتداء إلى الحل .

لذلك نستطيع القول : بأن ما أسميناه الإمكان الحضاري ، وامتلاك القدرة على الإقلاع من جديد ، إنما يتحقق كلما توفرت وسائل إحداث التفاعل بين الإنسان ، والإسلام ، الأمر الذي لم يتوقف تواصله في تاريخ الأمة الطويل على اختلافٍ في مساحاته ، وكان الهاجس الدائم ، لرواد الإصلاح ، وحركات التجديد ، وإن اختلفت قراءتهم للمشكلات ، والإصابات ، وإحاطتهم بها ، وما وضعوه من وسائل للنهوض ، وإحداث التفاعل ، وتحقيق الشهود الحضاري .

إن الإحساس بمشكلة تخلف المسلمين ، وإمكان الإسلام على تحقيق الشهود الحضاري ، كان قدراً مشتركاً بين رواد الإصلاح ، وحركات التجديد ، والنهوض عامة ، ولولا ذلك الإحساس لما حصلت دواعي التحرك ، والمحاولات المتعددة لاسترداد الدور الحضاري ، لعالم المسلمين . . لكن تبقى المشكلة المطروحة ـ في نظرنا على الأقل ـ تكمن في عدم الرسوخ في فهم أزمة التخلف ، والإحاطة بأبعادها ، وإدراك جوانبها المتعددة ، وأسبابها القريبة

والبعيدة ، والسنن والقوانين التي تحكمها ، للوصول إلى الخروج منها ، وأهمية عدم التداخل بين الأسباب والأعراض . وهذه هي القضية الغائبة ، والمطلوبة ، والمطروحة ، في الوقت نفسه ، ذلك أن الواقع ـ وليست قدرتنا على الاختبار والتقويم ـ برهن لنا ، أن الحلول التي طرحت بشكل عام ، أو سبل الخروج والنهوض التي اعتمدت ، لم تحقق المأمول منها ، وإن كنا لم نعدم في كل جيل ، بعض النظرات اللافتة والدقيقة ، في التشخيص ، ولكنها نظرات بقيت قاصرة عن أن تفتح المجرىٰ ، وتحقق النقلة النوعية ، ولذلك أسبابه التي لم توضع في الاعتبار كما يجب ، لذلك لم تحقق المطلوب .

ولابد من الإشارة هنا : إلى أن الحكم بعدم القدرة على تحقيق الشهود الحضاري الإسلامي لحركات التغيير بشكل عام ، لايعني انعدام الكسب ، بأقدار متفاوتة ، ووضع معالم على الطريق ، كانت دليلاً للقادمين في المستقبل ، في مجالي الخطأ والصواب على سواء ، ذلك أن الخطأ ـ إذا أحسنا تقويمه وإدراكه ـ يتحول إلى مكسب إيجابي ، يوجه إلى الحقيقة ويوفر الطاقة ، ويختصر الطريق على الجيل الجديد .

لذلك نعتقد أن القيام بمراجعات ، وتقويمات ، ودراسات ، هادفة لحركات الإصلاح ، والتجديد ، والتغيير ، في العالم الإسلامي ، ومحاولة إلقاء الأضواء على جوانبها المتعددة ، وتحويل ناتج التجربة ، ورصيدها ، إلى

الجيل الحالي ، يعتبر اليوم من أوجب الواجبات ، ففي ذلك اختزال للعقول في عقل ، وللأجيال في جيل ، وللتاريخ في الحاضر ، كما أنه اختزال للتاريخ والحاضر ، في تشكيل رؤية المستقبل المأمول ، والمساهمة بصناعته .

إن القفز فوق التجارب السابقة ، وعدم اعتبارها ، والاعتداد بها ، وبخسها حقها في الخطأ والصواب ، ودراسة الأسباب التي صنعتها ، والنظر في علل الأشياء التي أوجدتها ، والظروف والملابسات التي أحاطت بها ، والاقتصار على الحالة الوصفية ، لمظاهر السبب ، وآثار العلل ، وناتج الخلل ، كان وراء الكثير من استمرار التعثر ، والإخفاق ، وتكرار الأخطاء ، وذلك يعني الاقتصار في النظر على علم الظاهر ، كما يعني الإحساس بالأزمة ، دون البحث في امتلاك القدرة للتحول إلى إدراكها ، بعيداً عن التعرف على العلل ، والقوانين الناظمة لها . قال تعالى : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (الروم : ٢٢) .

لذلك نعتقد أنه من الأهمية بمكان للمعهد العالمي للفكر الإسلامي الذي اختار لنفسه المرابطة في الموقع الأخطر : (دراسة عالم الأفكار ، الذي يعتبر الموجه الأساس لحركة الحياة ، والأخذ بيد العقل المسلم لاكتشاف القوانين والسنن الاجتماعية ، التي تحكم التخلف والركود ، كما تحكم النهوض ، وتأصيل فقهٍ حضاري ، ومناهج تفكير ، لإدراك سنن الخروج من الأزمة ،

واستعادة الشهود الحضاري للأمة ، ومحاولة إعادة النظر في العلوم والمعارف والدراسات الإنسانية ، التي تساهم بالتشكيل الثقافي ، وضبطها بأهدافها ، وتحريك آليات التغير الاجتماعي ، واختبار وسائل ومؤسسات الدعوة والتربية ، لإعادة قدرتها على إحداث التفاعل ، بين الإنسان والإسلام ، وإنتاج النموذج ، الدال على خلود الحضارة الإسلامية وقدرتها على الإنجاب في كل عصر ، والارتقاء بالخطاب الإسلامي ، إلى المستوى العالمي ، وحسن المرابطة في هذا الموقع الفكري ، الذي يعتبر الرحم ، الذي تتخلق فيه كل النواتج الحضارية ، المادية منها والسلوكية ، ويتشكل في إطاره إنسان الحضارة ، بإبداعه المادي والمعنوي) أن يراجع طروحاته ، ويقوّم خططه باستمرار ، ليرتقي بأدائه ، وبذلك يكفي المسلمين هذا الموقع الهام والفاعل .

وقد يكون في مقدمة الأمور المطلوبة : إعادة طرح ومناقشة أفكار روّاد الإصلاح ، وإحياء الجدل حولها . ولعل نشر رسالة الشيخ ابن عاشور تكون باكورة ذلك .

ولئن حاول علماء الحضارة ، والمعنيون باستقراء تاريخها وإنتاجها ، تحديد مضمونات كل من مصطلحات : الحضارة ، والثقافة ، والمدنية ، واعتبروا أن المدنية : تنحصر في الإنتاج المادي (في إطار وسائل الإنسان) ، وأن الثقافة : تعني كل الدراسات والإنتاج ، التي تتم في إطار الإنسان : سلوكه ،

ونظمه ، وقيمه . . . إلخ ، وأن الحضارة تعني : الإبداع البشري في إطار الثقافة ، والمدنية معاً ، فإننا نرى أن هذا التقسيم ، أقرب لأن يكون تقسيماً فنياً ، لاغير ، ذلك أن النواتج المادية للحضارة ، لم تنشأ من فراغ فكري ثقافي ، وإنما تسبقها دائماً الأفكار التي تتبلور فيما بعد ، وتتجسد في شكل مادي ، وأن الإبداعات المادية ، ماهي إلا رموز تحمل أفكار أصحابها ، وتنقلها إلى الآخرين ، إلى درجة أصبحنا نرى معها اليوم ، أن أفكار وتصاميم الصناعات ، انفصلت عن معاملها ، وأصبحت بعض البلاد المتقدمة ، تنتج الأفكار ، وتبيعها إلى السواعد في البلاد الأخرى ، لتجسدها في الصناعة . والمدينة في نهاية الأمر ، لا تخرج عن أن تكون مظهرًا ثقافيًا .

نعود إلى القول : إنه من الأهمية بمكان أن يكون المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، عالميًا حقاً ، حريصاً على استيعاب ونشر ، الإنتاج الفكري ، الذي يساهم في تشكيل الرؤية الصحيحة لمسلم اليوم ، للخروج من الأزمة الفكرية ، وتأهيل المسلمين ، ليكونوا في مستوى إسلامهم وعصرهم ، حيث تتجه البشرية اليوم أكثر من أي وقت مضىٰ ، إلى النظام العالمي ، والحوار الحضاري ، وبناء الحضارة الإنسانية ، وحوار الحضارات . .

وتأتي أهمية الرسالة التي ينشرها المعهد اليوم للشيخ محمد الفاضل بن عاشور رحمه الله، من قدرة صاحبها على تحليل ظواهر المشكلات، التي يعاني منها عالم

المسلمين ، وتقليب وجهات النظر على وجوهها المتعددة ، واستحضار الرؤى الإصلاحية السابقة ، ومحاولة اختبارها ، وتحديد الإصابات التي لحقت بها ، والاعتبار بها ، وفتح الباب للبحث في العلل ، والأسباب ، التي انتهت بالأزمة إلى ماصارت إليه ، حيث لم يقتصر في ذلك ، على اجتهادات ومرئيات رواد الإصلاح في الداخل الإسلامي ، وإنما حاول الامتداد إلى محاولات التفسير التي جاءت من الخارج الإسلامي أيضاً ، والتي يمكن أن تكون بعيدة عن الإصابة ببعض جوانب الأزمة .

ولقد توفر للشيخ الفاضل بن عاشور الكسب الشرعي الزيتوني ، والتشكيل الثقافي ، والاستعداد الفطري ، الذي ميزه عن أقرانه ، والتجربة الميدانية ، التي منحته الرؤية الشاملة للواقع الإسلامي ، والتعرف على نتائج حركات النهوض والإصلاح .

حيث نشأ وتربى في مناخ والده الشيخ الطاهر بن عاشور ، العالم الأديب ، صاحب الكتاب الشهير : مقاصد الشريعة الإسلامية ، وشيخ جامع الزيتونة ، ورئيس المفتين في تونس ، مسترشداً بتوجيهاته ، ومعتمداً على مكتبته الحافلة بكنوز العلم ونفائسه . . وتخرج في المعهد الزيتوني الذي شكّل له مرجعيته الشرعية . . كما شارك في إلقاء العديد من المحاضرات في جامعة

السوربون ، وجامعة استانبول ، وجامعة عليكره ، إضافة إلى عضوية المجامع اللغوية ، والمشاركة في مؤتمرات المستشرقين .

كما خبر الحياة مدرساً ، وقاضياً ، ومفتياً ، ومكافحاً للاستعمار ، الأمر الذي نوّع موارده الثقافية ، وتجاربه الحياتية ، وجعله يتوفر على رؤية دقيقة ، مستمدة من عطاء الوحي ، واجتهاد العقل ، مكنته من تحليل الظواهر وردها الى أسبابها الحقيقية ، وعللها الأصلية ، وتحديد مواطن الخلل الذي لحق برؤية رواد الإصلاح .

إن الاستفهامات التي يسلطها المؤلف على جوانب دعوات الإصلاح ، ومشاريع النهوض ، وطروحاتها ، ذات أهمية فى بناء عقلية التنهيج ، وإصلاح مناهج الفكر ، المطلوبة للباحثين ، والمفكرين ، في دراساتهم ، وتقويمهم ، لحركات الإصلاح ، والإفادة من التجارب السابقة ، بيحث لايبقىٰ جانباً من جوانبها تحوطه الظلمة ، ويجيء التقويم رهيناً أو أسيراً لرؤية المصلح نفسه ، وبذلك تتكرر المأساة ، ويستمر عجزنا عن امتلاك فقه الخروج .

لقد حاول الشيخ بن عاشور بعد أن استعرض بعض مشاريع النهوض ، أن يأتي بنماذج للمعالجات والحلول التي وضعت لأزمة المسلمين ، ومن ثم اختبار تلك المعالجات ، ومدى قدرتها على تحقيق الأهداف ، آخذاً في اعتباره الظروف

والملابسات ، التي رافقت دعوات الإصلاح . . ولم يفته اعتماد عنصر الزمن ، الذي هو المختبر الحقيقي ، لصواب الفعل الحضاري ، ودراسة مردوده ، وخاصة بالنسبة لمن اعتبروه عنصراً منتظراً للوصول إلى الحل . . لقد توقف طويلاً في بحث مدى إدراك المصلحين للعلة الحقيقية ، التي مكنت من الإصابة ، وساهمت بتكرارها .

كما لم يفته وهو يتناول المنهج الخلدوني ، في النظر والتحليل ، الإشادة بالنظرية الخلدونية ، في تعليل الأمور ، وتفسير الواقع ، واستشراف المستقبل ، الذي ستؤول إليه الأحوال ، والتي برهن الزمن نفسه ، على دقتها ، لأن ابن خلدون استطاع أن يكشف العلة الحقيقية للإصابة ، ويضع المقدمات الصحيحة ، التي سوف تنتهي إلى النظرة المستقبلية الصائبة ، بعد أن يحاول لفت النظر إلى السبب الجامع الشامل ، والعلة الكلية ، التي ترجع إليها الأمور ، وتتفرع عنها جميع الأسباب ، بعيداً عن جدلية أن لكل سبب سبباً منشئاً ، الأمر الذي يوقع في الدور والتسلسل ، والجدل المجرد ، عن الفعل الحضاري .

وبذلك تأتي الرسالة بمثابة خطاب موجه إلى النخبة التي أخذت على عاتقها مسؤولية الإصلاح ، وماتعانيه هذه النخبة من أزمة أعجزتها عن إنقاذ الأمة ، ذلك أن الأزمة التي نعاني منها هي أزمة النخبة التي تعتبر العقل المدبر ، وليست

أزمة الأمة . . كما تأتي محاولة متقدمة لتأصيل المنهج في التعليل والتقـويم والمراجعة .

ويبقىٰ أن نقول : إلى أي مدى لحقت بنظرات ، ومناهج رواد الإصلاح ، وقياداته إصابات الأزمة ، وأدركتهم أسباب التخلف ، التي حالت بينهم وبين استكناه الأسباب الحقيقية ، وجعلتهم يقتصرون في النظر على الآثار ، وعدم القدرة على اتخاذ الآثار طريقاً لاكتشاف أسباب والخلل الفكري في بنية عقل الأمة ، لذلك جاءت معظم معالجاتهم مقتصرة على رصد النتائج دون البحث في معرفة المقدمات ، والأسباب الحقيقية ، التي كانت وراء هذه النتائج .

ونحن في هذا الوقت ، الذي نحاول فيه استرداد ذاتنا ، وامتلاك القدرة على القراءة الإسلامية ، أحوج مانكون إلى تأصيل المناهج الفكرية ، المنبثقة عن نسقنا المعرفي ، الذي يجمع بين معرفة الوحي ، وعطاء العقل ، في النظر إلى المشكلات الثقافية ، والحضارية المعاصرة ، في محاولة للوصول إلى الحكمة ، التي ضلت الحضارة المعاصرة الطريق إليها ، فجاء كسبها على حساب إنسانية الإنسان .

والله الهادي إلى الصواب

المعهد العالمي للفكر الإسلامي
واشنطن